الأمير محمد عبد الكريم الخطابي
حياته و كفاحه ضد الاستعمار (١٩٤٧-١٩٦٣)

رسالة ماجستير غير منشورة
إعداد: حسن محمد حسن البدوي
معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ٢٠٠٦
إشراف: الأستاذ الدكتور عبد الله عبد الرازق إبراهيم

عرض

حسن البدوي
كاتب وباحث في التاريخ الحديث والمعاصر
دولة قطـر
hassan_elbadawy@hotmail.com

إننا بصدد الحديث عن فترة من أهم فترات تاريخنا الحديث والمعاصر ، فترة شهد فيها العالم أبشع صور التكالب الاستعماري ، لنهب واستنزاف خيرات وموارد الشعوب الضعيفة والمغلوبة على أمرها ، ولما كان الوطن العربي قد شغل الجزء الشمالي للقارة الإفريقية بأكمله ، إضافة إلى منطقة الشمال الغربي لقارة آسيا ، لذا فقد عُد من أهم المناطق إستراتيجية في العالم ، لما كان العرب قد سيطروا من زمن بعيد ، بحكم هذا الموقع المُتميز في طرق تجارة الحرير القادمة من الصين ، وتجارة البُهار القادمة من الهند ، ولعدة قرون قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ؛ لذا فقد ظل الكيان العربي مطمعاً للغزاة والمغامرين ، واندفعت موجات الاستعمار الأوروبي صوب أقرب بلاد العرب إليهم بشمال إفريقيا ، فاحتلوا الجزائر عام ١٨٨٠م ، وفرضوا الحماية على تونس عام ١٨٨١م ، ثم على المغرب عام ١٩١٢م ، لذا فقد اكتظت تلك الفترة بالعديد من صور مقاومة السيطرة الأجنبية ، وبرزت بعض الشخصيات أمثال الأمير عبد القادر في الجزائر ، وسيدي محمد أمزيان وسيدي عبد الكريم الخطابي في المغرب ، وكان من المُجاهدين الكثير ممن يضيق المُقام عن ذكرهم ، لذا سنعرض لسيرة أحد رموز الكفاح العربي في شمال إفريقيا وهو الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي.

ولد محمد بكراً لأبيه أحد قادة قبيلة بني وريغل بمنطقة الريف بشمال المغرب ، نشأ في كنفه وتلقى عليه هو وشقيقه الأصغر أمحمد مبادئ الدين الحنيف ، إضافة إلى العلوم الدنيوية ، بُغية الوقوف على أحوال الغرب وطبائعهم ، عملاً بمبدأ "من علم لغة قوم أمن غدرهم" ، لذا فقد أرسل والده شقيقه الأصغر لتلقى علوم التعدين بالعاصمة الأسبانية مدريد ، في الوقت الذي كانت تحتل فيه أسبانيا بعض مناطق شمال المغرب ، أما محمد فأرسله والده للعمل بمدينة بمليلة الواقعة ضمن منطقة النفوذ الأسباني أيضاً ، فقام بتدريس اللغة العربية للضباط الأسبان ، وعمل بالصحافة ، فلما رأى منه الأسبان اتزاناً وعدلاً عُين قاضياً في مليلة ، فحرص خلال عمله معهم على الوقوف على حقيقة نواياهم ، وعلى الهدف من تواجدهم بأرض بلاده ، حتى إذا ما تأكد من إصرار الأسبان على الاستمرار في سياسة الظلم والبطش في المناطق التي احتلوها ، فضلاً عن عزمهم التوسع في باقي أراضي الريف ، استدعاه والده هو وشقيقه ، مُعلنين الجهاد ضد أعداء الوطن.

دار صدام بين الفريقين ، فلما توفي الأب خلفه ابنه الأكبر في قيادة المُجاهدين ، واستمرت المعارك قرابة الخمس سنوات ، حقق خلالها الريفيين بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي انتصارات لا تزال مضرباً للأمثال في البراعة وحسن التخطيط ، بعد أن تمكنوا من دحر أكبر قوة عسكرية جردها ضدهم الأسبان بقيادة الجنرال "سلفستري" في منطقة أنوال الريفية عام ١٩٢١م ، مواصلين تقدمهم للقضاء على باقي مناطق النفوذ الأسباني في المغرب ، حتى إذا ما فتح الله عليهم ، ودانت لهم القبائل ، أعلنوها حكومة ريفية مستقلة ، لا تخضع لسلطة المستعمر الغاشم ، بل تدين بالولاء للسلطان الشرعي للبلاد.

لما فشلت أسبانيا في القضاء عليهم ، عملت على إضعافهم بأن استفزت ضدهم السلطان يوسف سلطان المغرب ، وأوقعت في نفسه كذباً أن محمد بن عبد الكريم ما هو إلا ثائر طامع في عرش البلاد ، فانطلت اللعبة على السلطان ، الذي كانت فرنسا قد وقعت معه عقد الحماية عام ١٩١٢م ، فخشي من ضياع سلطانه ، وأعلن أن محمد بن عبد الكريم خارج عن طاعته ، وبذا أصبح على محمد بن عبد الكريم مواجهة مستعمر غاصب ، وسلطان مُغيب ، والعديد من الخونة الجهلاء ، لكن إصرار المُجاهدين وإيمانهم بحق بلادهم في التمتع بحرية كاملة ، لا ينتقص منها احتلال عسكري ولا اتفاقيات ، جعلهم يواصلون الكفاح مُحققين النصر تلو الآخر ؛ فلما شعر الأسبان بأن سلطانهم في المغرب قرب من الزوال وأن استنفارهم للسلطان ضد ابن عبد الكريم لم يُجدي نفعاً ، بحثوا عن من يُعاضدهم للصمود أمام تقدم المُجاهدين ، فلم يجدوا سوى فرنسا ، المنافس الأول لهم في المنطقة ، فتعاهدوا ووضعوا اليد في اليد للقضاء على ابن عبد الكريم ورجاله ، ودارت المعارك هنا وهناك ، واتسعت ساحات القتال ، وفعل الحلفاء كل ما هو مشروع وغير مشروع لإبادة الريفيين ، فكانت الغازات السامة والمُحرقة ، وقصفت الأسواق بالطائرات ، واستبيحت الحُرمات ، وموورست كل وسائل البطش والتنكيل بالأهالي العزل وبالمُجاهدين.

حتى إذا ما قضى الله أمره ، وكان ما كان من استنفاد المُجاهدين لكل وسائل الصمود أمام هذا الطوفان الجارف ، ومع ما لأمير المُجاهدين من حكمة ونباهة ، فضل أن يكون كبش فداء ليحفظ على من تبقى من أهل الريف ومن المُجاهدين حياتهم ، وقبل أن يُنفى هو وأسرته إلى جزيرة "رينيون" إحدى المستعمرات الفرنسية بالمحيط الهندي عام ١٩٢٦م ، وغاب الأمير وأسرته عن بلادهم لأكثر من عشرين عاماً ، عانوا خلالها مرارة النفي والبعد عن الأهل والأوطان ، أمضى الأمير تلك السنوات في محاولات ومحاولات من أجل العودة إلى بلاده ، لكن دون جدوى ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م ، وما نتج عنها من تغير في موازين القوى العالمية ، وافقت فرنسا على التخفيف من قيوده ونقله هو وأسرته إلى أراضيها.

وفي مايو عام ١٩٤٧م وأثناء عبور الأمير وأسرته لقناة السويس المصرية ، عرض عليه بعض المغاربة المُقيمين بالقاهرة النزول بمصر ، ووافقت الفكرة رغبة الأمير الخطابي ، فنزل بمصر مواصلاً كفاحه من جديد ؛ التف مُجاهدي شمال إفريقيا (تونس—الجزائر-المغرب)

المُقيمون بالقاهرة حول الأمير ، وعزموا على تكوين هيئة مغربية كبرى توحد جهودهم ، وأن يكون الأمير زعيمهم الأول ، ومرشدهم الخبير ، وتأسست "لجنة تحرير المغرب العربي" بالقاهرة عام ١٩٤٨م ، وأصبحت اللجنة الممثل الشرعي للمغاربة ، بعد أن نالت تأييد ودعم العديد من الدول العربية والإسلامية ، بيد أن تباين أفكار أعضاء اللجنة بدا واضحاً منذ اللحظة الأولى ، ففي الوقت الذي أقر فيه البعض وجهة نظر الأمير المُنادية بالكفاح المُسلح كوسيلة مثلى للتعامل مع الاستعمار - في الوقت ذاته - نادى البعض بالدخول في مباحثات سلمية مع المستعمر ، وألا يتعدى دور الأمير الخطابي في رئاسة اللجنة دوراً شرفياً ، باعتباره أحد رموز الكفاح المغربي وفقط ، فلما رأى الأمير إصرارهم على تهميشه ، وعلى المُضي في تلك السياسة التي تنتقص من كرامة بلادهم ، آثر الانفصال عن اللجنة ، مواصلاً كفاحه مع من تبقى معه من المُجاهدين المُخلصين.

في تلك الأثناء استطاع بعض التونسيين بقيادة الحبيب بورقيبة ، وبعض أعضاء الأحزاب المغربية ، أن يتوصلوا بالتفاوض مع الفرنسيين إلى اتفاقات من شأنها منحهم استقلالاً ذاتياً ، شريطة ألا يتخطى هذا الاستقلال دائرة الارتباط الدائم بفرنسا ، ووجد الأمير الخطابي نفسه وحيداً هو ومن معه من المُجاهدين الجزائريين - وبعض ذوي الهمم والوطنية من المغاربة والتونسيين - لذا كانت تصريحات الأمير ونداءاته تصل إلى شعب شمال إفريقيا منبهة إياه لما يُحاك له ، مُستنفرة همته للتخلص من الاستعمار وأعوانه ، لذا لم تكن تصرفات الأمير الخطابي لتجد قبولاً لدى الذين انخدعوا بما اعتبره الخطابي استقلالاً منقوصا ، فتنكروا له ولجهاده ، وعمل بعضهم على الإيقاع بينه وبين ملك المغرب محمد الخامس ، بالرغم من ذلك فقد أصر الأمير على مواصلة الكفاح.

مضى قطار الحياة بالأمير الخطابي وانقضى أكثر من ثمانية عقود ، قضاها الأمير مُجاهراً برفضه لكل صور الاستعمار ، وفي فبراير ١٩٦٣م وبأرض الكنانة تنتهي رحلة كفاح بطل المغرب وأسد الريف ووري الثرى ، بعد أن سجل لنا وجهة نظره في الفترة التي عاشها مُجاهداً في مذكراته التي خط فيها بسطور من نور رحلة كفاح المغاربة.

وتنقسم الدراسة إلى خمسة فصول:

الفصل الأول
(المغرب تحت السيطرة الأجنبية)

تم الاستعانة في هذا الفصل بجانب كبير من مذكرات الأمير الخطابي ، والفصل يقدم نبذة جغرافية وتاريخية عن المغرب ، إضافة إلى نشأة الأمير ، وتوليه قيادة المُجاهدين بالريف خلفاً لوالده ، وتأسيسه للحكومة الريفية ، ودحره للأسبان في معركة أنوال وما تبع ذلك من تحالفهم مع الفرنسيين ضد المُجاهدين ، حتى انهيار قوة الريفيين ، وما نتج عنها من استسلام الأمير الخطابي ونفيه إلى جزيرة رينيون في المحيط الهندي.

كما يعرض الفصل لرحلة الأمير الخطابي وأسرته إلى منفى جزيرة رينيون ، ولإقامتهم الطويلة بها ، وكيف كان لتغير معايير السياسة الدولية آنذاك تأثير على مجريات حياتهم بالجزيرة ، ويعرض للجهود التي بذلت من أجل تخليص الأمير الخطابي من الأسر الفرنسي ، وما دار في كواليس حركة الجهاد المغربي بالقاهرة ، وكيف تم التنسيق مع السلطات المصرية لتسهيل عملية فرار الأمير وأسرته من الباخرة ، ولكيفية استقبال المصريين الأمير الخطابي وأسرته.

الفصل الثاني
(الأمير الخطابي ولجنة تحرير المغرب العربي)

هذا الفصل يعرض للظروف التي مهدت للجوء الأمير إلى مصر ، وما ترتب على فراره من قبضة الفرنسيين من ردود أفعال ، إضافة إلى إلقاء الضوء على نشاط المغاربة في الفترة التي سبقت تحرر الأمير الخطابي ، وما تلا ذلك من تكوين لجنة تحرير المغرب العربي ، وكيف استطاع الأمير الخطابي من خلال اللجنة تأسيس النواة الأولى لجيش تحرير المغرب ، وإرساله للبعثات من المغاربة لتلقى العلوم العسكرية بالكليات الحربية العربية ، ناهيك عن تدريبه للمجاهدين المغاربة ، بأحد المعسكرات بمنطقة الهايكستيب بالقاهرة. يعرض الفصل أيضاً لما دب من خلافات بين أعضاء اللجنة ، وما نتج عنه من انفصال الأمير الخطابي عن اللجنة ، وممارسته لنشاطه السياسي هو ومن تبقى معه من المخلصين منهم .

الفصل الثالث
(الأمير الخطابي يواصل الكفاح من القاهرة)

يعرض هذا الفصل لموقف الأمير الخطابي من الممارسات الفرنسية في المغرب ، ومن نفى السلطان محمد الخامس ، وتعيين محمد بن عرفة خلفاً له ، ولكيفية قيادة الأمير حملة للضغط على فرنسا ، بواسطة جيش تحرير المغرب ، وتوجيهه للثوار في الأقطار المغربية الثلاث ، ثم لتفجر الثورة التونسية ، والثورة الجزائرية ، مما دفع فرنسا إلى التغيير من سياستها في شمال إفريقيا ، بتحييد التونسيين ، ثم بتحييد المغاربة ، بأن أبدت عدم ممانعتها في التفاوض معهم ، وما نتج عن ذلك من اختلافات في وجهات النظر بين المتفاوضين الذين قبلوا بأنصاف الحلول ، وبين الأمير الخطابي والوطنيين الذين لم يكن ليرضيهم سوى رحيل الاستعمار نهائياً عن شمال إفريقيا بأكمله ، الأمر الذي دفع بالسلطات المغربية إلى قيادة حملة بطش وتنكيل بهؤلاء المعترضين على التفاوض مع فرنسا ، مما زاد الأمور تعقيداً.

الفصل الرابع
(الأمير الخطابي والاستقلال)

يعرض هذا الفصل للأحوال المغرب عقب إعلان الاستقلال ، وما ترتب على ذلك من تفجر الثورة في منطقة الريف ، ولموقف الأمير الخطابي من تلك الثورة ، إضافة إلى إعلان الجنرال ديجول عن عزمه منح الاستقلال للجزائريين ، وكيف تعاونت السلطات في كل من المغرب وتونس معه لتنفيذ مخططه في الجزائر ، بمحاولاتهم الترويج لفكرة الوحدة المغربية.

كما يعرض الفصل للقاء التاريخي بين الأمير الخطابي والملك محمد الخامس بالقاهرة ، وما دار بينهم من حديث انتهى إلى وعد الملك للخطابي بأن يكون عام ١٩٦٠م عام جلاء القوات الأجنبية ، ولما قام به الأمير الخطابي من مجهودات لإجلاء تلك القوات ، إضافة إلى تركيزه الجهود من أجل القضية الجزائرية ، بعد أن تخلى حكام تونس والمغرب عنها بطرق مباشرة وغير مباشرة. يعرض الفصل إلى

الأمير تنديد بالتجارب والتفجيرات النووية الفرنسية في المستعمرات ، وبترحيل الطلبة المغاربة من القاهرة ، وبمعاهدة إيفيان.

الفصل الخامس
(مواقف وقضايا في حياة الأمير الخطابي)

يعرض هذا الفصل لبعض القضايا الهامة في حياة الأمير الخطابي ، مثل موقفه من مشروع الدستور المغربي الجديد ، ومن قضية ولاية العهد كنظام لتوريث الحكم في المغرب ، وموضوع عودته إلى المغرب. ويعرض لأخر بيانات الأمير الخطابي إلى المغاربة ، ولسياسته العربية والعالمية من خلال مواقفه من بعض القضايا والأحداث الدائرة في العالم ، مثل قضية الشرق الأوسط ، والأحداث الدائرة في بعض الدول مثل مصر ، والكنغو ، ومالي ، وموريتانيا ، وإندونيسيا ، وليبيا ، والهند وغيرها ، فضلاً عن شمال إفريقيا.

يعرض الفصل لبعض صفات الأمير الخطابي ، ولكيفية حصول الأسرة الخطابية على مواردها المالية. ثم للأيام الأخيرة في حياة الأمير الخطابي ، ثم لرحيله ، وإصرار أسرته على أن يدفن في مصر ، وكيف أقامت له مصر جنازة رسمية ، ويختتم الفصل بما أثير حول مذكرات الأمير في وسائل الأعلام ، وبما وجده الباحث في المذكرات من معلومات هامة ومفيدة ، إضافة إلى وصف دقيق لماهية تلك المذكرات وما بها من أحداث ، مع إبداء ما تلاحظ بها وعليها من ملاحظات.

وقد توصل الباحث في الخاتمة لعدة نقاط هامة:

- كان انخراط الأمير الخطابي في العمل بالسياسة مبكراً ، إضافة لمرافقته لوالده في رحلة كفاحه الأولى بالريف ، وما تخللها من عمل كمدرس للغة العربية للضباط الأسبان ، ثم قاضياً لقضاة مليلة ، ثم اعتقاله ، إضافة إلى عمله بالصحافة في جريدة تلغراف الريف — أدى ذلك- إلى نضوج فكره وجعله قارئ جيد للأحداث ، وآياً ما كان من أمر هزيمة قواته المتواضعة ، أمام قوات التحالف الأسباني الفرنسي ؛ فإن ذلك لا يُعد هزيمة نهائية ، وإنما هو مُجرد خسران لمعركة.
- لو حاولنا النظر إلى موقف الخطابي أثناء تلك الظروف لوجدناه موقف جدير بكل احترام وتقدير ، إذ كانت مبادرته بأن يجعل حريته طوق نجاة لمن تبقى من رجاله ومن الريفيين ، دليلاً نافياً لأي ادعاء بأنه سعى لتحقيق منفعة شخصية ، أو أهداف دنيوية.
- على هذا لم يكن نفي الأمير الخطابي وأسرته إلى جزيرة رينيون النائية ، ليفت في عضده ، بالرغم من أن سيرته كمتمرد — روكي- كانت قد سبقته إلى الجزيرة ، فنظر إليه أهلها نظرة استياء وحذر ، لذا كانت فترة إقامته الأولى بالجزيرة بمثابة سجن لكل أفراد الأسرة ، إلا أن ذلك لم يحل دون متابعته لما يجري في العالم من أحداث ، وعليه يُمكننا القول بأن فترة المنفى أفادت الخطابي فكرياً بشكل كبير ، إذ كان الحصار المفروض عليه في الريف كافياً للحيلولة بينه وبين الانفتاح على العالم بالشكل المناسب ، أما في الجزيرة فكان بإمكانه الوقوف على ما يدور في العالم من أحداث ، كما كان تخفيف قيوده فيما بعد ، سبباً في اختلاطه بالسكان ، فحقق شهرة واسعة بينهم ، وحاز ثقة الجميع ، بما فيهم الضباط والجنود الذين كُلفوا بحراسته طوال واحد وعشرون عاماً.
- لم يستسلم الأمير لحياة المنفى وحاول جاهداً الخروج من الجزيرة ، وبالرغم من فشل كل محاولاته إلا أنه رفض قبول أي من عروض الدول التي عرضت مساعدته على الخروج من الجزيرة ، لإدراكه أن خروجه بهذه الطريقة لن يعود على بلاده بأي نفع ، وبذا فقد قدم مصلحة بلاده على أي منفعة شخصية ، وبالرغم من موافقة فرنسا المتأخرة على نقله إلى أراضيها ، ولأهداف لا تخدم إلا مصالحها ، إلا أن قدراً ربانياً جرى لإفساد مُخطط فرنسا ، الأمر الذي عبر عنه الأمير الخطابي نفسه من التقاء رغبته مع رغبة من قابلوه على ظهر المركب ؛ وبذا يُحسم الخلاف حول تلك المسألة - فلا هو خطف ، ولا هو حُرض ، ولا هو فر ، ولا هو طلب ، ولا هو أجبر- على النزول بأرض مصر ، إنما توافقت رغبته مع رغبة الذين اقترحوا عليه الإقامة في مصر ، ولم يكن استقبال المصريين له بكل ترحاب ، إلا مؤشراً على ما تمتع به من مكانة في قلوب العرب كافة ، وفي قلوب المصريين خاصة.
- لم تكن الظروف التي نزل فيها الأمير الخطابي بأرض مصر عام ١٩٤٧م لتماثل تلك الظروف التي غادر فيها الريف عام ١٩٢٦م ، إذ كان جهاده بالريف منذ عشرين عاماً النواة الأولى للحركة الوطنية لدى المغاربة ، الذين استطاعوا تكوين عدة تنظيمات نادت بالتخلص من الاستعمار ، والتي سيرتكز عليها الخطابي عندما عاد لممارسة نشاطه الجهادي في القاهرة.
- أدرك الخطابي خلال نشاطه بمكتب المغرب العربي ، ثم بلجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة ، ما أعترى بعض المغاربة من اختلاف في وجهات النظر ، نتج عن تنافسهم وعدم خبرتهم ، ومحاولة بعضهم تحقيق بعض المنافع الشخصية ؛ لذا حاول الأمير الخطابي إزالة ما نشب بينهم من خلافات ، بيد أن الأمر لم يكن يقتصر على التنافس بينهم ، فقد اختلفوا مع الأمير على الطريقة المُثلى للكفاح ، ففي الوقت الذي عمل فيه الخطابي على إنشاء مؤسسة عسكرية مُنظمة لطرد الاستعمار من بلدان شمال إفريقيا — في الوقت ذاته- عمل آخرون على التقليل من أهمية دور الأمير العسكري ، مُركزين الجهود في الحصول على وعد من المستعمر ببعض الحريات ، التي يُمكن أن تكون — من وجهة نظرهم- خطوة أولى إلى تحقيق امتيازات أخرى تالية ، ليس هذا فقط ، بل أن بعضهم عمد إلى تهميش دور الأمير الخطابي في قيادة اللجنة ؛ وجعله مُجرد رمز وفقط ، الأمر الذي دفع الأمير الخطابي إلى الانفصال عن اللجنة ، مُتفرغاً للجهاد على طريقته.
- رغم تحفظ الخطابي على بعض تصرفات ساسة المغرب إلا أن ذلك لم يُوقفه موقف المتفرج من سياسة فرنسا الجائرة في المغرب ، وخلعها للسلطان محمد الخامس ، تولية محمد بن عرفة خلفاً له عام ١٩٥٣م ، لذا بدأ في الضغط عليها عن طريق جيش تحرير المغرب ، مما أسفر عن عودة السلطان محمد الخامس إلى عرشه ، ورغم ما كان يُمكن أن يستثمر من موقف جيش التحرير ومن استقبال الشعب للسلطان ، إلا أن بعض الزعماء المغاربة ركنوا إلى التفاوض مع فرنسا مُخرجين إلى الوجود معاهدة أكس ليبان ، التي حطمت آمال الخطابي ، الأمر الذي دفعه إلى مُعارضة تلك

الاتفاقية ، مُعلناً أنها مؤامرة على مصلحة الشعب ، وأن القائمون عليها مُغيبون.

- كان حصول الزعماء المغاربة على هذا الاستقلال المنقوص عام ١٩٥٦م ، سبباً فيما لاقوه من معارضة الأمير الخطابي وعقلاء المغرب ، وبذا وجدوا مبرراً للقضاء على جيش التحرير ، والبطش والتنكيل بمعارضيهم ، واتخاذ منزل الأمير الخطابي بأجدير مُعتقلاً للمُجاهدين وقادة جيش التحرير ؛ الأمر الذي أدى إلى تفجر الثورة بالريف أواخر عام ١٩٥٨م وأوائل ١٩٥٩م مُطالبة بالاستقلال التام غير المنقوص.
- كان حصول كل من تونس والمغرب على هذا النحو ، إضافة إلى جهر البعض بضرورة التخلي عن قضية الجزائر ، دافعاً للأمير الخطابي للتنديد بتلك التصرفات المتناقضة مع ما نص عليه ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي ، الأمر الذي أثار ضده حفيظة العديد من النفعيين ، كما كان وقوفه وراء المُجاهدين الجزائريين في ثورتهم ضد فرنسا ، دافعاً للجنرال ديجول للعب نفس الدور مع الساسة الجزائريين ، بعد أن تم التأثير عليهم بضغط كل من الإدارة المغربية والتونسية ، حتى رضخوا في النهاية لخطة ديجول ، التي انتهت بتوقيع معاهدة إفيان في مارس ١٩٦٢م.
- لم يكن الإعلان عن دستور المغرب الجديد عام ١٩٦٢م ليُرضي ، الأمير الخطابي وكثير من المغاربة ؛ لذا صاح الخطابي مُجاهراً لا للتسلط ، لا لتحكم الفرد ، لا لتزوير آراء الشعب ورغباته ؛ كان هذا الموقف من الخطابي بمثابة المسمار الأخير الذي دق في نعش العلاقة المُضطربة التي ربطت بين الأمير الخطابي وساسة المغرب ، فقطع عنه معاشه الوهمي ، وسبه البعض في الصحف ، وجاهروا بتمنيهم الموت له حيث هو بالقاهرة ، ليس هذا وفقط ، بل أن الحكومة المغربية طلبت رسمياً من مصر أن تحد من نشاط الأمير الخطابي ؛ الأمر الذي أدى إلى التنبيه على الصحف بعدم نشر مقالات وتصريحات الأمير الخطابي التي يُمكن أن تتسبب في اضطراب العلاقات مع الحكومة المغربية.
- لهذا الحد كان المُتحكمون في المغرب يُكنون للخطابي الضغائن ، ولم يكن هذا إلا لمُعارضته سياستهم المُهادنة ، الظالمة للشعب ، برغم تلك التصرفات إلا أنه كان يداوم على مراسلة مسئولي الدولة ذوي المناصب الحساسة ، موجهاً لهم النصح ، واضعاً يدهم على مواطن الخلل في أنظمتهم ، طالباً منهم أن يكونوا عند حسن ظن الشعب بهم ، وعلى الجانب الأخر كان يوجه النداء تلو الأخر للشعب المغربي ذاته ، مبيناً له الطريق الذي سار فيه ساسته ؛ لذا ظلت إشكالية عودة الأمير الخطابي إلى المغرب مثار جدل كبير ، منذ إعلان استقلال المغرب ، فلماذا لم يعد الخطابي عندما دعاه الملك محمد الخامس عام ١٩٦٠م للعودة معه ؟ يقول الخطابي: "بإذن الله سنعود لكن بعد أن يخرج آخر جندي أجنبي من البلاد" كان هذا مطلب الخطابي الوحيد ، والذي لم يتحقق حتى وفاته.
- كان الأمير الخطابي يؤمن بأن حل المشاكل الوطنية مهما كان نوعها ، ينبغي أن يعتمد على القدرات الذاتية بالأساس ، وليس على تجود به الهيئات الدولية التي لا تقيم وزناً للأمم الصغيرة ، لذلك لم يكن كثير التفاؤل بهيئة الأمم ولا بمجلسها الأمني ، بعد أن رأى تحيز "عصبة الأمم" لجانب الأقوياء "إن ما رأيناه من عرض قضايا مصر وفلسطين وإندونيسيا وغيرها على مجلس الأمن وهيئة الأمم ، يجعلني قليل الثقة - بل عديم الثقة- في قيمة الالتجاء إلى هيئات التحكيم الدولي ، إن مشكلاتنا لن تحل إلا بأيدينا ، وداخل أراضينا سلماً كان أم حرباً" ويستنتج الخطابي أن تلك المؤسسة أعجز من أن ترد الحق إلى أهله ، وبالتالي فإن رفع الشكوى إليها لن يُفيد ، وإن من الخير تركها "لأن هاته المؤسسة لا تستطيع حل أية مشكلة".
- تمتع الأمير الخطابي بشخصية محبوبة مُميزة ، ولم يكن من هؤلاء الذين تعج بهم الصالونات وقاعات الاحتفالات ، كان الخطابي لا يحب الأضواء ، ويُفضل العمل في صمت ، وكان قليل الظهور في المجتمعات والمنتديات ، إلا بالمناسبات التي لها علاقة بشكل أو بآخر بقضية الجهاد ، الأمر الذي جعله بمنأى عن الشبهات ، ومحل ثقة من الجميع ، وكان يرحمه لا يتوانى عن مساعدة الآخرين ، فإن لم يكن بيده ما يُقدمه لهم ، فكان يوجههم بما له من مكانة في قلوب المسئولين على اختلاف مناصبهم ، إلى من يقضي لهم حاجتهم ، مُساوياً في ذلك بين من يعرفه ومن لا يعرفه ، ولم تكن اتصالات الخطابي بالمسئولين لتقتصر على القطر المصري فقط ، فقد ربطته علاقات أخوة وصداقة مع معظم رؤساء وملوك الدول آنذاك ، وكان حريصاً على مراسلتهم للتهنئة أو العزاء أو لإبداء النصح لهم ، الأمر الذي توفر لنا من الكثير من المراسلات التي وجدناها ضمن أوراق الأمير الخطابي ، والتي تظهر بجلاء ما كان يتمتع به الأمير من مكانة في قلوب من راسلوه ، إذ لا تخلوا رسالة من تلك الرسائل من الدعاء له أو الثناء عليه ، أو دعوته للزيارة أو مداومة المراسلة ، إلى غير ذلك من معاني الحب والتقدير ، التي بادله إياها كل من راسله سواء من أناس عاديين أو ملوك ورؤساء الدول.
- لم يكن الأمير الخطابي رغم ما تمتع به من مكانة عظيمة لدى الجميع ، ليسمح لنفسه أن يطلب إلى أي شخص أياً كانت حيثيته ، شيئاً لشخصه ، أو شيء يُخالف أو يتحايل على القوانين ، فبالرغم من معاناة الأسرة الخطابية مادياً ، خلال الفترة الأولى لإقامتها بالقاهرة ، إلا أنه لم يسلك أي طريق غير ملائم للتكسب أو المتاجرة بتاريخه الجهادي الكبير ، بل كان على العكس من ذلك تماماً ، فعندما فرضت له الحكومة المصرية راتباً شهرياً قام باقتسامه بين أسرته وبين المجاهدين المغاربة ، الذين كان قد اتصل بهم بمجرد وصوله إلى مصر.

الخطابي

- أضف إلى ذلك عدم خضوع الخطابي للمساومات التي مارسها عليه البعض لإعادة أملاكه التي صادرها الأسبان والفرنسيين ، عقب نفيه إلى جزيرة رينيون ، ومع هذا فضل الخطابي سلك الطريق المشروع لإعادة ممتلكاته السليبة ، دون الخضوع إلى أي من تلك الضغوط ، وفضل أن يُمارس أفراد الأسرة بعض الأعمال بالقاهرة مُعتمدين على الله ، وبنفس الطريقة التي عاشوا بها في جزيرة رينيون.
- كان زهد الأمير الخطابي في ملذات الحياة وترفعه عن مباهجها سبباً فيما تمتع به من ورع ، كان قد أكتسبه من ممارسته لمهنة القضاء ، إذ كان القضاء وما يعتمد عليه من مبادئ الدين ، مُهذباً لنفس الخطابي ، مُنقياً لسريرته ، الأمر الذي يسهُل معه على أي قارئ لبيانات الأمير أو مراسلاته سواء للشعب أو للأفراد ، اكتشاف ما بها من مسحة دينية ، إذ لم تخرج أي من كتابات الأمير يوماً عن فلك الدين بقواعده الثابتة الرصينة ، فلا نلمس فيها أي نوع مما نراه في كتابات الاستعماريين من حقد أو ما شابه ، بل نجده على النقيض يدعوهم إلى العمل بما فيه مصلحتهم أولاً من عدم استعداء الشعوب المستضعفة عليهم ، مُنبهاً إياهم إلى ما يُمكن أن يعود عليهم من ذلك من عواقب.
- لم يضن الأمير الخطابي على شباب أمتنا بثمرة جهاده بالريف ولا بما اكتسبه من خبرة ومهارة خلال تعامله مع الاستعمار ، وترك لنا في مذكراته خلاصة وافية - سهلة مُيسرة — صاغها في حُلة بديعة ، أضفى عليها بروحه الباسلة لمسات دلت في وضوح على ما تمتع به الرجل من حب ونباهة وإيمان ، ترك لنا مُذكراته شاهدة على تلك الملحمة المغربية الجهادية العظيمة ، وبرغم رفض الخطابي نشر المذكرات في حياته ، خشية أن يُدنسها أعداء الحرية بالتحريف والتبديل ، إلا أن عزائنا أنه حفظها لنا ، وقت أن كان للاستعمار ذيول وأعوان هنا وهناك ، أما وقد آن الأوان - لنطلع عليها - فلننهل منها ونتعلم كيف تكون الوطنية والحرية الحقة.

الأستاذ حسن البدوي في سطور:

باحث مصري متخصص في تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر ، حاصل على ليسانس الآداب جامعة القاهرة ، ودبلوم الدراسات الأفريقية ، والماجستير في التاريخ الحديث من معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة ، ومسجل في درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ، مهتم بالتاريخ ويهوى التراث والآثار ، يقيم حالياً في دولة قطر ، ويشارك في جريدة العرب القطرية بمقال في صفحة التاريخ كل أربعاء.

الأندلس
المجد الزائل

تقع الأندلس في الطرف الغربي من أوربا، وتشمل الآن ما يسمى أسبانيا والبرتغال، ويفصلها عن قارة أفريقيا مضيق جبل طارق. ويراد بالأندلس في التاريخ الإسلامي تلك الحقبة الزمنية التي امتدت من فتح العرب لأسبانيا ٩١هـ / ٧١١م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م وهي الفترة التي امتدت نحو ثمانية قرون.

وقد قام بفتح الأندلس ثلاثة من أبطال الفتوح الإسلامية الكبرى؛ هم أسد الصحراء طارق بن زياد، وموسى بن نصير، وابنه عبد العزيز بن موسى. وقد قارن الطبيب الأمريكي المؤرخ فيكتور روبنسون بين الحالة الصحية وغيرها في الأندلس وفي أوربا خلال فترة الفتح الإسلامي للأندلس فقال:" كانت أوربا في ظلام حالك، في حين كانت قرطبة تضيئها المصابيح، وكانت أوربا غارقة في الوحل، في حين كانت قرطبة مرصوفة الشوارع".

وقد علا شأن العروبة والإسلام في الأندلس خلال العصور الممتدة بعد الفتح، حتى عصر آخر ملوك الأندلس وهو أبو عبد الله، الذي ما كاد ينفرد بالحكم حتى خرج عليه فرديناد "ملك النصارى" عازماً على ألا يعود في غرناطة مُلك للمسلمين. وتلاقى الغريمان وتراجع العرب وتم حصارهم في مدينة غرناطة، وأخذوا يعانون عذاب الموت جوعاً حتى اتفقوا على التسليم. وسلم مفاتيح المدينة السلطان أبو عبد الله، ثم ركب جواده مولياً يودع ملكاً ذهب ومجداً ضاع، ورأته أمه عائشة يبكي فقالت: "ابكِ مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال".

ولم يعرف الأسبان عندما نفوا العرب من بلادهم أنهم إنما يخربون بيوتهم بأيديهم، ولم يدركوا أنهم قتلوا الإوَزَّة التي تبيض الذهب، فقد كانت أسبانيا ولقرون طويلة في حكم العرب مركز المدينة، منبع الفنون والعلوم، مصباح الهداية في أوربا.

وإننا لنلمس فضل المسلمين وعظيم أثر مجدهم حينما نرى بأسبانيا الأراضي المهجورة التي كانت أيام المسلمين جنات تجري من تحتها الأنهار، فحينما نذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموج بالعلم والعلماء، نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار.

مقال منشور مجلة نسمات.– العدد الثاني؛ ابريل ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م.– القاهرة: كلية الآداب– جامعة عين شمس، ٢٠٠٠.